السابق

أمثاله وأشعاره

جبران خليل جبران

ترجمة

أنطونيوس بشير

[الترجمة العربية الوحيدة التى أقرها جبران]



جبران خليل جبران

كلمة الناشر

بين يدى القارئ الكريم أحسن ما سطره جبران خليل جبران بدم قلبه ، فهو القائل : « ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب » .

كان جبران يراسل والدى الشيخ يوسف البستانى فى العشرينات ، ولم يكن جبران فى ذلك الوقت قد ذاع صيته وانتشر نتاج فكره فى العالم العربى .

ولكن القلم العربى الذى لا يلحن ولا ينقل الفكر الإنجليزى المكتوب إلى ترجمة عربية فحسب ، وجد سبيله عند جبران فى شخص صديقه الأرشمندريت أنطونيوس بشير الذى عاش فى أمريكا أيضا مهاجرا ، لهذا رأينا جبران يكلف بشيرا بترجمة « النبى » إلى العربية ، ومن ثم ولدت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٢٦ ، ثم تبع ذلك كتاب « كلمات » ، و « رمل وزبد » ، و « دمعة وابتسامة » ، و « البدائع والطرائف » ، و « المجنون » ، و « يسوع ابن الإنسان » وغير ذلك مما نسجه جبران بريشته .

وقد كان الغش التجارى سمة من سمات الناشرين والمترجمين فى العالم العربى ، فظهرت طبعات مزورة لا تشير إلى الناشر الأول أو المترجم مستكفية بصورة جبران وتأليف جبران خليل جبران . وظهر مترجمون آخرون وفقهم الله فى مسعاهم وجهدهم فى سبيل ترجمة أفكار جبران ،

ولكن بقى شيء واحد — لا شك فيه — وهو أن هذه الترجمة للنبى هى الوحيدة التى أقرها جبران وراجعها وبعث بها إلى والدى فى العشرينيات، وكان والدى فى ذلك الوقت يملك متجرا فى درب الجماميز (١) ثلاثة أمتار فى متر واحد !! ولم يطمع جبران فى مال يغرفه من أبى، بل اكتفى ببعض النسخ لتوزيعها على أصدقائه فى المهجر.

هذه هى قصة هذه الطبعة ! بقى أن يعرف القارئ كيف أرادت الصهيونية العالمية تهويد جبران خليل جبران ونقله عن عقيدته وعروبته ... هذا ما كشف عنه المترجم الأول والوحيد لجبران فى الفصل الأخير من الكتاب ...

لقد عاش جبران عربيا ومات عربيا ... لقد خدم جبران أهله وعشيرته فى نقل أفكاره إلى لغات العالم. لقد ضغط جبران روحه وهو يقول: « ليس فكرا أُخَلِّفُهُ ورائى، بل قلبا حمَّلْتُهُ مجاعتى وجعله عطشى رقيقا خفوقا ». ثم يسترسل فيقول: « كانت أيام كآبتى طويلة ضمن جدران هذه المدينة ... وأطول منها كانت ليالى وحدتى وانفرادى، ومن ذا يستطيع أن ينفصل عن كآبته ووحدته من غير أن يتألم فى قلبه ؟ ».

صلاح الدين البستانى

القاهرة فى أول يناير ١٩٨٥

---

(١) أحد أحياء القاهرة القديمة المجاور للأزهر الشريف.

أنت سابق نفسك

أنتَ سابق نفسك ياصاح ، وما الأبراج التى أقمتَها فى حياتك سوى أساس لذاتك الجبَّارة . وهذه الذاتُ فى حينِها ستكون أساساً لغيرها .

وأنا مثلك سابقُ نفسى ، لأنَّ الظل المنبسط أمامى عند شروق الشمس سيتقلَّصُ تحت قدمى عند الظهيرة . وسيعقب هذا الشروقَ شروقٌ آخر فيُحدث ظلاً ثانيا أمامى ، ولكن هذا الظل عينه سيتقلص تحت قدمى أيضاً فى ظهيرة أخرى .

منذ البدء ونحن سابقو نفوسنا ، وسنبقى سابقى نفوسنا إلى الأبد . وليس ما حشدنا ونحشدُ فى

حياتنا سوى بذور نعدها لحقول لم تفلح بعد .
نحن الحقول ونحن الزارعون .. نحن الأثمار ونحن المستثمرون .

عندما كنتَ يا صاح فكرةً هائمةً فى الضباب ، كنتُ هنالك فكرة هائمةً مثلك ، فنشدتُك ونشدتَنى فكانت من تشوّقاتنا الأحلام ، والأحلامُ كانت زماناً بلا قيود ، والأحلام كانت فضاءً بلا حدود .

وعندما كنتَ كلمةً صامتةً بين شفتى الحياة المرتعشتين ، كنتُ أنا مثلك هنالك كلمةً صامتة؛ وما تلفظت الحياة بنا حتى برزنا إلى الوجود وقلبانا يخفقان بتذكارات الأمس ، والحنين إلى الغد .
وما الأمس سوى الموت مطروداً ، ولا الغد سوى الميلاد مقصوداً .

وها نحن الآن في يدي الله ، فأنت شمسٌ منيرةٌ في يمناه ، وأنا أرضٌ مستنيرة في يسراه ؛ ولكن قوتك على الإنارة ليست بأفضل من قوتي على الاستنارة .

ومـا نحـــن الشمس والأرض إلا بداءَةٌ لشمسٍ أعظم ، وأرضٍ أعظم ، وسنبَقَى بداءَةً إلى الأبد .

أنت سابق نفسك أيها الغـريب العابـرُ بباب حديقتي ، وأنا مثلك سابق نفسي على رغم أني أجلس في أظلال أشجاري وأبدو ساكناً هادئاً .

البُهلول

جاءَ فى قديم الزمان رجلٌ من البادية إلى مدينة الشريعة العظيمة ، وكان بُهلولاً خيالياً . ولم يكن له من متاع سوى ثوبه وعصاه .

فكان يطوف فى شوارع المدينة ويتأمل فى هياكلها وأبراجها وقصورها بإعجاب وإجلال ؛ لأن مدينة الشريعة كانت غايةً فى الجمال . وكان بين الآونة والأخرى يخاطب العابرين به مستفهماً عن مدينتهم وغرائبها ، فلم يفهموا لغته كما أنه لم يفهم لغة أحدٍ منهم .

وعند انتصاف النهار وقف أمام فندق فسيح

الأرجاء بديع الهندسة والإتقان ، وكان الناس يدخلون إليه ويخرجون منه من غير اعتراض .

فقال البهلول في ذاته : « لا شك أن هذا مزارٌ مقدس » . ودخل مع الداخلين .

وشدَّ ما كانت حيرته عندما وجد نفسَهُ في بهوٍ عظيم ، وكبراءُ القومِ من رجال ونساء جالسون إلى كثير من الموائد الأنيقة يأكلون ويشربون ، والموسيقيون يشنّفون آذانهم بأطرب العزف والغناء .

فقال البهلول إذ ذاك في ذاته : « قد ضللت ، فما هذه بالعبادة التي توهمت ، بل مأدبة أعدَّها الأمير لشعبه تذكاراً لحادث جلل » .

وفي تلك الدقيقة دنا منه رجلٌ ، خُيّل إليه أنه عبد الأمير ، وسأله أن يجلس مع الجالسين ؛

فجلس . فقُدمت إليه اللحوم والخمور والحلوى أفخرها وأشهاها ، فأكل هنيئاً وشرب مريئاً .

وعندما بلغ كفافه همّ بالانصراف ، ولكنه ما وصل إلى الباب حتى دنا منه رجلٌ بادنٌ متأنق اللباس فأوقفه .

فقال البهلول فى قلبه : « لاشك أن هذا هو الأمير بعينه » ، فانحنى أمامه وحياه باحترام وشكره بلغة قبيلته .

أما الرجل البادن فخاطبه بلغة المدينة قائلا له :
« ياسيدى إنك لم تدفع بعدُ ثمن غدائك » .

فلم يفهم البهلول شيئاً ولكنه شكره ثانية من صميم قلبه . فتأمله الرجل البادن جيداً ، وبعد أن أمعن النظر فى وجهه ملياً أدرك أنه غريب عن المدينة ، وعرف من ثيابه الرثة أنه فقير الحال وليس

له ما يدفعه ثمن غدائه . فصفق منادياً . فجاء على الفور أربعة من حراس المدينة ومثلوا بين يديه . فقص عليهم قصة البهلول . فألقوا القبض عليه في الحال ومشوا به اثنين اثنين من عن جانبيه . أما البهلول فكان يتأمل فى ملابسهم المزركشة وهو يكاد يطير فرحاً قائلاً فى سره : « لا شك أن هؤلاء من أشراف المدينة » .

فسار الحرّاس به إلى أن بلغوا دار القضاء فدخلوا إلى قاعة المحاكمة . فرأى البهلول أمامه فى صدر تلك القاعة رجلاً جليلاً جالساً على منصة عالية تجلله المهابة ، وتزيده لحيته البيضاء المسترسلة على صدره هيبةً ووقارا . فخُيل إليه أنه الملك بعينه ، وطارت نفسه فرحاً لمثوله امامه .

ثم بسط الحراس دعواهم إلى القاضى ، فعيَّن

القاضي محاميين : واحداً يدعي على البهلول وآخر يتولى الدفاع عنه . فنهض المحاميان الواحد تلو الآخر وأدلى كل بحججه .

أما البهلول فظن أنهما يرحبان به باسم الملك ، فامتلأ قلبه بعواطف المنة ومعرفة الجميل للملك وللأمير على كل ما جرى له .

وعند انتهاء المحاكمة حكم القاضي بما يأتي على البهلول : « يجب أن تكتب جريمته على لوحة وتُعلّق على صدره ، ثم يُركب حصاناً عارياً ويطاف به في المدينة ويسير المزمرون والمطبلون أمامهُ » .

فنُفذ الحكم في الحال ، وأُركب البهلول حصاناً عارياً وطيف به في شوارع المدينة وسار المزمرون والمطبلون أمامه . وكان سكان المدينة

يتراكضون على سماع الأصوات فينظرون إليه وهو على تلك الحالة ويغربون في الضحك أفراداً وجماعات . وكان الأولاد يركضون وراءه من شارع إلى شارع زرافات زرافات .

أما البهلول فكان ينظر إليهم بعينين مشرقتين فرحاً والدهش آخذ منه مأخذه ، لأنه كان يعتقد أن اللوحة المعلقة على صدره إنما هي وسامٌ قدمه الملك له عربون بركته ورضاه عن زيارته ، وأن ذلك الموكب ماهو إلا احتفاء بحضرته .

وحدث أنه فيما هو راكب والجمع يحشده ، رأى بينهم بدوياً من قبيلته فاختلج قلبه طرباً وهتف به بأعلى صوته قائلا : « بربك ياصاح ! أين نحن الآن ؟ أليست هذه المدينة التي يسميها شيوخنا مدينة رغائب القلب ، وشعبها الأريحيون

الفياضون الذين يحتفون بعابر السبيل فى قصورهم ، ويرافقه أمراؤهم ، ويشرف ملكهم صدره بالنياشين فاتحاً له أبواب مدينته الهابطة من السماء ؟» .

فلم يقل البدوى الثانى كلمة قط ، ولكنه تبسّم وهزّ رأسه .

أما الموكب فاستمرّ فى سيره .

وكان وجه البهلول مرتفعاً أبداً ، والنور يفيض من عينيه .

المحبة

يقولون إن ابن آوى يشرب من الجدول الواحل الذى يشرب منه الأسد ،

ويقولون إن النسر والشوحة ينقدان الجيفة الواحدة وهما متفقان متسالمان .

فياأيتها المحبة العادلة ،

يامن كبحت جماح رغائبى بيدك القديرة ،

وحولت مجاعتى وعطشى إلى إباءٍ وشمم ،

لا تأذنى للقوىّ العزوم فىّ أن يأكل الخبز أو يشرب الخمر ، اللذين يستهويان ذاتى الضعيفة .

ذريتى بالأحرى فأقضى جوعاً ،

بل دعى قلبى يتلهب عطشاً ،

واتركينى أموت وأفنى ، قبل أن أمدَّ يدى إلى

قدح لم تملئيه ، أو كأس لم تباركيه .

الملك الناسك

خُبّرت أن فتىً يعيش فى غابٍ بين الجبال ، وأنه كان فيما مضى ملكاً على بلادٍ واسعة الأرجاء فى عبر النهرين . وقيل لى أيضاً إن هذا الفتى قد تخلى بملءِ اختياره عن عرشه وعن أرض أمجاده ، وجاءَ ليستوطن القفار .

فقلت فى نفسى : « لأسعيَنَّ إلى ذلك الرجل سعياً وأقف على ما فى قلبه من الأسرار ، لأن من يتنازل عن الملك فهو ولا شك أعظمُ من المُلْك .

فذهبت فى ذلك النهار بعينه إلى الغاب حيثما كان قاطناً . فوجدتــه جالساً فى ظلال سروة

بيضاء ، وبيده قصبة كان ممسكاً بها كأنما هي صولجانه . فحييته كما يُحيَى الملوك . وبعد أن ردَّ التحية التفت إليَّ وقال بلطف : « ماعساك تبتغي في هذا الغاب الأعزل ياصاحبي ؟ أجئتَ تنشد ذاتاً ضائعةً في الأظلال الخضراء ، أم هي عودة إلى مسقط رأسك عند انقضاء شغل النهار ؟ » .

فأجبته قائلاً : « إنني ما نشدتُ إلّاك ، ولا شاقني إلا الوقوف على ما حدا بك إلى استبدال مملكتك الكبيرة بهذه الغابة الحقيرة ؟» .

فقال : « وجيزةٌ قصتي ، فقد انطفأت فقاقيع غروري فجأةً . وإليك حكايتي :

فيما كنت جالساً إلى نافذة في قصري ، كان وزيري يتمشى مع سفير أجنبي في حديقتي . وعندما صارا على مقربة من نافذتي سمعت الوزير

يتكلم عن نفسه قائلا : « أنا مثل الملك أتعطش للخمـــرة المغتقـــة ، وأعشق جميـــع ضروب المقامـرة ، ويثـور بى ثائِر الـغضب كسيـــدى الملك ». ثم توارى الوزير والسفير بين الأشجارِ . ولكنهما مالبثا أن عادا بعد هنيهة ، وإذا بالوزير يتكلم عنى فى هذه المرة قائلًا : « إن سيدى الملك مثلى يُحسن الرماية ويتعشق الألحان ، وهو مثلى يستحم ثلاثاً فى اليَوم » .

وسكت لحظة ثم زاد قائلاً : « فى عشية ذلك اليوم تركت بلاطى ولا شىء معى سوى عباءتى ، لأننى لم أشأ بعد ذلك أن أكون ملكاً على قوم يدعـون نقـائصى لأنفسهـم ، ويعـزون فضائلهـم إلىَّ » .

فقلت له : « ماأغرب قصتك ، وماأعجب أمرَك ! »

فأجابني قائلاً : « ليس هنالك من غرابة ياصاحبي ، فقد قرعت أبواب سكينتي طامعاً منها بالكثير ، فلم يكن لك منها سوى اليسير . بربك قل لي مَنْ لايستبدل مملكةً بغابٍ تترنم فيه الفصول ، وترقص طروبةً أبداً ؟ كثيرون هم الذين تركوا ممالكهم ليستبدلوها بأدنى مراتب الوحدة ، والتمتع بحياة العزلة السعيدة . وكم هنالك من نسور هبطت من جوها الأعلى لتعيش مع المناجذ في أنفاقها الصامتة ، فتتفهم أسرار الغبراء . بل ماأكثر الذين يعتزلون مملكة الأحلام لكي لايظهروا للناس أنهم بعيدون عمن لاأحلام في نفوسهم ، والذين يعتزلون مملكة العُرى ساترين

عُرية نفوسهم ، حتى لا يستحى الأحرار من النظر إلى الحق عارياً والتأمل فى الجمال سافراً . وأعظم من هؤلاء جميعهم ، ذاك الذى يعتزل مملكة الحزن لكى لا يظهر للناس معجباً مفاخراً بكآبته » ..

ثم نهض متوكئاً على قصبته وقال : « ارجع الآن إلى المدينة العظمى ، وقف بأبوابها مراقباً جميع الداخلين إليها والخارجين منها . واعنَ بأن تجدَ الرجل الذى زُعِم أنه وُلِدَ ملكاً فهو بدون مملكة ؛ والرجل الذى زُعِم أنه مسودٌ بجسده فهو سائد بروحه ــ ولكنه لا يدرى بذلك ولا رعاياه يدرون بسيادته ــ والرجل الذى يبدو للعيان حاكماً ولكنه بالحقيقة عبد لعبيد عبيده » .

وبعد أن فرغ من كلامه نظر إلىَّ فلاحت لى منه

ابتسامة خلبتها الفَ فجرٍ وفجر .

ثم تحوَّل عني متغلغلاً في قلب الغاب .

أما أنا فرجعت إلى المدينة ، ووقفت بأبوابها أراقب العابرين بي على نحو ما قال لي . وما أكثر الملوك الذين مرت أظلالهم فوقي ، منذ ذلك اليوم حتى الساعة ، وما أقل الرعايا الذين مرَّ فوقهم ظلي .

بنتُ الأسد

وقف أربعة عبيد يُروّحون بمراوحهم للملكة حيزبون ، كانت نائمةً على عرشها تغطُّ غطيطاً غليظاً . وكان في حضن الملكة هرةٌ متكئة تموءُ وهي تنظر إلى العبيد نِظرةَ كره وازدراء .

فقال العبدُ الأول لرفقائه : « ماأبشع هذه الحيزبون نائمةً ، انظروا كيف تراخت شفتاها ، وهي تصعد أنفاسها كأنما الشيطان آخذ بخناقها » .

فموّت الهرة قائلةً :« إن بشاعتها في رقدتها

ليست جزءاً من بشاعتكم في عبوديتكم المستيقظة » .

ثم قال العبد الثاني: « ومن الغريب أن النوم لم يلطف ملامح وجهها بل زادها تجعداً ، فهي ولا شك حالمةٌ حلماً شريراً راعبا » .

فموّت الهرة قائلةً لهم : « حبذا لو تنامون أنتم وتحلمون بحريتكم » .

فقال العبد الثالث لرفقائه أيضاً : « يلوح لي أنها ترى في منامها موكب جميع ضحاياها الذين قتلتهم ظلماً وعدواناً » .

فموّت الهرة قائلةً : « نعم فهي ترى مواكب أجدادكم وأحفادكم » .

ثم قال العبد الرابع : « ماأغباكم تتحدثون عن هذه الملكة وهي نائمة ، وماذا يجديكم الحديث

نفعاً أو يجدينى ؟ ألعلّه يخفف عنى نصبى فى وقوفى وعنائى فى ترويحى لها ؟ » .

فقالت الهرة وهى تموء : « أجل ، إنكم ستروحون إلى دهر الداهرين ، لأنه كما على الأرض كذلك فى السماء » .

وفى تلك اللحظة تحركت الملكة فى نومها فسقط تاجُها على الأرض . فقال واحدٌ من العبيد : « إن فى ذلك لشؤماً ! » .

فموّت الهرة وقالت : « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

فقال العبد الثانى : « ماذا يحلّ بنا إذا أفاقت الآن من نومها ورأت تاجها ساقطاً على الأرض . والله إنها تذبحنا جميعنا ! » .

فموّت الهرة قائلةً : « قد كانت تذبحكم منذ

ميلادكم أيها الأغبياءُ وأنتم لا تعلمون » .

وقال العبدُ الثالث : « إنها ولا شك تذبحنا ، وتعتبر أنها بعملها هذا إنما تقرب عبادة لآلهتها » .

فموّت الهرة قائلةً : « لا يُضحى للآلهة إلا الضعفاء » .

أما العبدُ الرابع فأسكت رفقاءَه عن الكلام ، والتقط التاج بتأنٍ ووضعه على رأس الملكة من غير أن يوقظها .

فموّت الهرة وقالت بصوت عال : « الحق أقول لكم : إنه لا يلتقط التيجان المدحرجة سوى العبيد » .

وبعد هنيهة استيقظت الملكة وتلفتت حواليها متثائبةً ، ثم قالت لعبيدها : « يخيّل إليّ أني حلمت بأني رأيت أربع حشرات يطاردهما عقرب ، حول

جذع سنديانة جبارة . قبحه الله من حلم مزعج ! » .

وأطبقت عينيها فنامت ثانيةً بعد أن ملأت القاعة بغطيطها . فطفق العبيد الأربعة يروحّون لها على جاري عادتهم .

أما الهرة فموّت قائلةً لهم : « روّحوا روّحوا أيها العميان والأغبياء ، فما أنتم تروحون إلا ناراً تلتهم وجودكم ! » .

القديس

زرت فى حداثتى قديساً فى صومعته الهادئة القائمة بين التلال ؛ وفيما كنا نبحث ماهية الفضيلة ، أطل علينا لصٌّ وهو يتعرج على الجانبين فوق الروابى والتعب قد أعياه . وعندما وصل إلى الصومعة جثا على ركبتيه أمام القديس وقال له :

« أيها القديس الشفيق ، قد جئتك طالباً تعزيةً ، فإن آثامى قد تعالت فوق رأسى » .

فأجابه القديس قائلاً : « ياابنى ، إن آثامى أنا أيضاً قد تعالت فوق رأسى » .

فقال له اللص : « عفوك ياسيدى ، فأنا سارق

وملءُ عينيه دهشةٌ وغرابة ، ومضى من غير أن ينبث بشفة .

أما أنا فكنت صامتاً إلى تلك الدقيقة ، فالتفت آنئذ إلى القديس وسألته قائلًا : « ما دعاك إلى أن تنسب لنفسك شروراً لم ترتكبها قط ياسيدى ؟ ألا ترى أن هذا الرجل قد مضى ولم يعد بعد من المصدقين بدعوتك ، والمؤمنين ببشارتك ؟ » .

فأجاب القديس وقال : « أجل يا بنى فإنك بالصواب حكمت بأنه لم يعد من المصدقين بدعوتى ، ولكن الحق أقول لك إنه قد انصرف والعزاءُ يملأُ فؤاده » .

وفى تلك اللحظة سمعنا اللصَّ يغنى من بعيد ، وكانت الأودية ترددُ صدى صوته الممتلئ بالمسرة والتعزية .

الطمع

رأيت في جولاني في الأرض وحشاً على جزيرة جرداء ، له رأس بشري وحوافر من حديد .

وكان يأكل من الأرض ويشرب من البحر بلا انقطاع . فوقفت أراقبه ردحاً ، ثم دنوتُ منه وسألتُهُ قائلاً : « ألم تبلغ كفافك بعدُ ؟ أليس لجوعك من شبع أو لظمئك من ارتواء ؟ » .

فأجابني وقال : « نعم ، نعم ، قد بلغت كفافي ، بل قد مللت الأكل والشرب ، ولكني أخاف أن لا تبقى إلى غدٍ أرض لآكل منها ، وبحرٌ لأرتوي من مائه » .

الذات العظمى

حدث بعد تتويج نُفسيبَعْل ملك جبيل أنه انصرف إلى مقصورته ، وهى الغرفة التى بناها له عرافو الجبل النساك . فنزع تاجه وخلع برفيره ووقف فى وسط المقصورة مفكراً بعظمته المتناهية كملك جبيل الواسع السلطان فى ذلك الزمان .

وكان فى صدر تلك المقصورة مرآة مفضَّضة الأطار أهدتها إليه أُمه ، فالتفت إليها بغتة وإذا برجل عارٍ قد خرج منها وتقدم إليه .

فأخذ الرعب بمجامع قلبه وصرخ بالرجل قائلاً : « ماذا تريد أيها الرجل ؟ » .

فأجابه الرجل وقال : « أودّ شيئاً واحداً أيها الملك ، وهو أن تخبرنى لماذا توجوك ملكاً على هذه البلاد ؟ » .

فقال له الملك : « قد توجونى مليكاً عليهم لأننى أنبل رجل بينهم » .

فقال له الرجل : « والله لو كنت أنبل مما أنت لما قبلت الملك » .

فأجابه الملك : « بل إنما توجونى لأننى أشدّهم بأساً وقدرة » .

فقال له الرجل : « لو كنت بالحقيقة أشدّهم بأساً ، لما قبلت أن تكون مليكاً عليهم » .

فقال له الملك : « ألا إنما توجنى شعبى لأننى أوفرهم حكمة » .

فأجابه الرجل قائلاً : « والله لو كنت أوفر

حكمة مما أنت الآن ، لما اخترتَ أن تكون ملكاً » .

فسقط الملك حينئذٍ على الأرض وبكى بكاءً مرًّا .

أما الرجل العارى فكان ينظر إليه بشفقة وحنان ، آسفاً على جهله وغروره . ثم تناول تاج الملك المتدحرج على الأرض ووضعه بلطف على رأسه المنحنى ، وعاد فدخل المرآة كما خرج وهو ينظر إلى الملك برقة ولهفة .

أما الملك فنهض بغتةً إلى المرآة وتأملها جيداً ، فلم يَرَ هنالك أحداً إلّاهُ وتاجه على رأسه .

الحربُ والأمم الصغيرة

كان في أحد المروج نعجة وحملٌ يرعيان . وكان فوقهما في الجو نسرٌ يحوم ناظراً إلى الحمل بعينٍ جائعة يبغي افتراسه . وفيما هو يهمُّ بالهبوط لاقتناص فريسته ، جاءَ نسرٌ آخر وبدأ يرفرف فوق النعجة وصغيرها وفي أعماقه جشع زميله .

فتلاقيا وتقاتلا حتى ملأ صراخهما الوحشيُّ أطراف الفضاء .

فرفعت النعجة نظرها إليهما منذهلةً ، والتفتت إلى حملها وقالت له : « تأمل ياولدى ، ماأغرب قتال هذين الطائرين الكريمين ! أو ليس من العار

عليهما أن يتقاتلا وهذا الجو الواسع كاف لكليهما ليعيشا متسالمين ؟ ولكن صلِّ ياصغيرى ، صلِّ فى قلبك إلى الله لكى يرسل سلاماً إلى أخويك المجنَّحين » .

فصلى الحمل من أعماق قلبه !

الناقدون

في عشية أحد الأيام كان المسافر راكباً حصانه وسائِراً إلى الساحل . فوصل في طريقه إلى فندق . فترجل عن حصانه وربطه إلى شجرة أمام الباب ، لأنه كان واثقاً بالليل وبالناس شأن أقرانه المسافرين إلى السواحل . وبعد ذلك دخل إلى الفندق مع الداخلين .

وعند انتصاف الليل كان جميع من في الفندق نياماً ، فجاءَ لصٌّ وسرق حصان المسافر فلم يدر به أحد .

وفي الصباح نهض المسافر من نومه وجاءَ على

الفور إلى حيث ربط حصانه فلم يجده .

وبعد أن فتش عنه عرف أن لصاً سرقه في تلك الليلة ، فتأثر كثيراً على فقد حصانه ولكنه حزن بالأكثر على أن بين الناس من يُغريه الشرُّ فيعمد إلى السرقة .

وعندما عرف رفقاؤه المسافرون بما جرى له ، تجمعوا حواليه وبدأوا ينحون عليه باللائِمة معنفين إياه .

فقال له الأول : « ماأحمقك أيها الرجل ! لماذا ربطت حصانك خارج الإصطبل ؟ » .

ثم قال له الثاني : « إنني أستغرب كيف أنك لم تحجل الحصان عندما ربطته . فما أوفر جهلك! » .

فقال الثالث لرفيقيه : « إن السفر إلى البحر

على ظهور الخيول غباوةٌ من أساسه » .

وقال الرابع : « أما أنا فأعتقد أنه لا يقتنى الخيول إلا كل بليد بطيء الخطى » .

فدهش المسافر لبلاغتهم وفصاحتهم في الوعظ والإرشاد بعد فوات الأوان . ثم قال لهم وهو يتميز غيظاً : « أيها الأصحاب ، عندما سُرق حصاني جاءَتكم الفصاحة عفواً فأسرعتم الواحد تلو الآخر تعددون هفواتي وزلاتي ، ولكن يدهشني كيف أنكم مع ما أُوتيتم من قوة البيان ، لم يقل أحد منكم كلمة عمن سرق الحصان ! » .

الشعراء

كان أربعة من الشعراء جالسين إلى خوان ، وكان على الخوان إناءٌ من الخمر .

فقال الشاعر الأول : « يُخيَّل إليّ أني أرى عبير هذا الخمر مرفرفاً في الفضاء ، كسحابة من الطيور في غاب مسحور » .

فرفع الشاعر الثاني رأسه وقال : « أما أنا فإني أسمع بأذني الباطنة هذه الطيور تغردُ ، فتأخذ ألحانها بمجامع قلبي فتأسره كما تأسر الزنبقة النحلة بين وُرَيقاتها » .

فأغمض الشاعر الثالث عينيه ورفع ذراعَهُ وقال : « أما أنا فإني أكادُ أُلامسها بيدي ، وأشعر بحفيف

أجنحتها يهبُّ فى وجهى كأنه لهاثُ جنية نائِمة » .

فنهض الشاعر الرابع إذ ذاك ورفع الإناء بيديه وقال : « عفوكم أيها الاخوان ! فإنى شحيح البصر ثقيل السمع كليل اللمس . فليس فى طاقتى أن أرى عبير هذه الخمرة ، ولاأن أسمع غناءَها ، ولاأن أشعر برفرفة أجنحتها . أواه ! إننى لاأشعر بغير الخمرة ذاتها ، ولذلك يجب أن أشربها لتوقظ حواسى الخاملة وتشعل روحى بنار بركتكم العلوية ووحيكم الطهور » .

ثم وضع إناء الخمر على شفتيه وأتى على آخر نقطة فيه .

أما الشعراء الثلاثة رفقاؤه فكانوا ينظرون إليه بدهشة ، فاتحين أشداقهم وفى عيونهم غُلّةٌ لاتروى لهبتها ، وبُغضةٌ لاتخمَدُ حدتها .

دوّارة الريح

قالت دوّارة الريح للريح : « قبّحكِ الله ما أثقلَك وما أملّك ! أليس في وسعكِ أن تهبي في وجه غير وجهي ؟ أم ألا تعلمين أنك بعملك هذا إنما تعكرين صفو ثباتي الذي أعطانيه الله ؟ » .

فلم تجب الريح بكلمة قط ، ولكنها ضحكت في الفضاء .

ملك أردوسة

مثَلَ شيوخ مدينة أردوسة مرة في حضرة الملك ، والتمسوا منه أمراً يقضي بمنع المسكرات في مدينتهم .

فلم يجب الملكُ سؤلهم ، بل ولّاهم ظهرَهُ وتركهم ومضى ضاحكاً منهم في ذاته .

فانصرف الشيوخ من حضرته قانطين .

ولما بلغوا باب القصر رأوا وزير الملك ، وكان هذا الوزير داهيةً فلحظ اضطرابهم وعرف قصتهم.

فقال لهم : « أواه أيها الأصحاب فإن الحظ لم يسعدكم ، لأنكم لو أتيتم إلينا عندما يكون ملكنا سكران لكنتم حصلتم في الحال على جميع ما تطلبون ! » .

طائر إيمانى

من أعماق قلبى هبَّ طائِرٌ وصعّدَ مخلّقاً فى الفضاء. وكان كلما حلّق فى الجوّ أكثر فأكثرْ يزدادُ كبراً فكبراً . فبدا أولّا كالخطاف ، ثم صار كالقبّرة ، فكالنّسر ، إلى أن أصبح كسحابة الربيع اتساعاً فملأ السماوات المرصعة بالنجوم .

من أعماق قلبى هبّ طائِرٌ وحلّق فى الفضاء ، وكان يزداد حجمه كلما طار .

ومع ذلك فإنه ظل ساكناً فى أعماق قلبى .

* * *

فيا إيمانى ، يا معرفتى الجامحة القديرة ، كيف أبلغ سموّك فأرى وإيّاك ذات الإنسان الفضلى المرسومة على أديم السماء ؟

كيف أحوّل هذا البحر الذى فى أعماق نفسى إلى ضباب كثيف ، وأهيم وإياك فى فضاء اللانهاية ؟

أو هل يستطيع السجين فى ظلمات الهيكل أن يرى قباب الهيكل المذهّبة ؟

أم هل للنواة أن تتمدّد فتغلف الثمر كما كان يغلّفها من ذى قبل ؟

أجل ، ياإيمانى الحليم ! أجل فإنى مقيّد بالسلاسل الحديدية فى غيابات هذا السجن المحدود تفصلنى عنك هذه الحواجز المصنوعة من اللحم والعظم ، وليس لى أن أطير معك الآن إلى عالم اللامحدود .

بيد أنك من قلبى تنبثق محلّقاً فى الفضاء الوسيع ، وأنت لاتزال قاطناً فى أعماق قلبى الوجيع ، وإنى بذلك لراض مستسلمٌ قنوع .

الخلافات

حدث عندما كانت ملكة عيشانـــا فى فراش مخاضها ، والملك وعيون بلاطه يترقبون نجاتها من آلامها الشديدة وهم جالسون على أحر من الجمر فى قاعة الثيران المجنحة[1] ، أنه دخل عليهم فجأة رسول مستعجل وركع على قدمى الملك وقال : « أيها الملك العظيم ، إننى أحمل لكم بشائر الفرح وللمملكة ولعبيد الملك أجمعين ، وذلك أن محراب الجائر عدوك اللدود

---

(١) كان عند قدماء الأشوريين إله له رأس إنسان وجسم ثور وأجنحة طائر ، وكانوا يرمزون برأسه عن الفكر ، وبجسمه عن العزم ، وبأجنحته عن الخيال . وهذا ما عناه المؤلف بقوله « قاعة الثيران المجنحة » .

ملك البترون قد قضى نحبه » .

فلما سمع الملك وكبار رجال دولته هذه البشرى ، نهضوا منتصبين على أقدامهم وهللوا فرحين . لأنه لو طال أجل محراب الجبار سنةً واحدة لغزا أرض عيشانا ، وقادَ سكانها عبيداً إلى بلاده .

وفي تلك اللحظة دخل طبيب البلاط إلى قاعة الثيران المجنحة ودخلت وراءَه قابلة الملكة . فانحنى الطبيب باحترام للملك وقال له : « ليعش سيدي الملك إلى الأبد ، فها قد رزقك الله طفلاً ذكراً سيخلفك على العرش ويخلد حكمك على شعوب عيشانا عديد السنين ! » .

فتهلل الملك وطارت روحه فرحاً ، لأنه في اللحظة الواحدة هلك عدوُّه وتأصلت الخلافة في نسله .

وكان فى مدينة عيشانا فى ذلك العهد نبىٌّ حقٌّ ، ولكنه كان فتى جرىءَ القلب باسل الروح .

فأمر الملك أن يحضر النبىّ بين يديه فى تلك الليلة ، فأُحضر فى الحال .

فقال له الملك : « تنبأ أيها النبىّ وقل لنا كيف سيكون مستقبل ابنى الذى وُلد الآن للمملكة ؟ » .

فأجابه النبىّ على الفور قائلاً : « أصغ أيها الملك ، فأنبئك الصدق عن مستقبل ابنك الذى وُلد لك اليوم . فإن روح عدوك — عدوك اللدود الملك محراب — الذى مات فى مساء الأمس لم تلبث على متن الأرياح سوى ليلة واحدة ، وقد هبطت إلى الأرض ثانيةً تطلب جسداً تأوى إليه فلم ترَ أفضل من جسد ابنك هذا الذى ولد لك اليوم فتقمصته » .

فاستشاط الملك غيظاً ، واستلّ سيفه وقطع رأس النبيّ بيده والزبد يخرج من فمه غضباً .

وها قد مرت الأيام وتصرمت حبال السنين على تلك الحادثة ، وحكماء عيشانا يسرّون واحدهم للآخر قائلين : « أما قيل لنا فى القدم وأثبتت الأيام ذلك المقول ، إن عيشانا يحكمها عدوها ؟ » .

المعرفة ونصف المعرفة

جلس أربع ضفادع على قرمة حطب عائمة على حافة نهر كبير . فجاءت موجة هوجاء واختطفت القرمة إلى وسط النهر ، فحملتها المياه . وسارت بها ببطءٍ مع مجرى النهر . فرقص الضفادع فرحاً بهذه السياحة اللطيفة فوق المياه ، لأنه لم يسبق لهنّ أن أبحرن من ذى قبل .

وبعد هنيهة صرخت الضفدعة الأُولى قائلةً : « يا لها من قرمة عجيبة غريبة ! تأملن أيتها الرفيقات كيف تسير مثل سائر الأحياء . والله إننى لم أسمع قط بمثلها ! » .

فأجابتها الضفدعة الثانية وقالت : « إن هذه القرمة لا تمشي ولا تتحرك أيتها الصديقة ، وهي ليست عجيبة غريبةً كما توهمتِ . ولكن مياه النهر المنحدرة بطبيعتها إلى البحر تحمل هذه القرمة معها ، وتحملنا نحن أيضاً بانحدارها » .

فقالت الضفدعة الثالثة : « لا لعمري فقد أخطأتما أيتها الرفيقتان في خيالكما الغريب ، فإن القرمة لا تتحرك والنهر أيضاً لا يتحرك مثلها ، وإنما الحقيقة أن فكرنا هو المتحرك فينا وهو الذي يقودنا إلى الاعتقاد بحركة الأجسام الجامدة » .

فتناظر الضفادع الثلاث في ما هو المتحرك بالحقيقة . وحمي وطيس الجدال وعلا الصراخ بينهن ولم يقررن على رأي واحد .

ثم التفتن إلى الضفدعة الرابعة ، التي كانت إلى

تلك الساعة هادئةً صامتةً تصغى إليهنّ بانتباه شديد ، وسألنها رأيها فى الموضوع .

فقالت لهنّ : « كلُّكن محقّاتٌ أيتها الرفيقات ، ولا واحدة منكنّ على ضلال ! فإن الحركة كائنة فى القرمة وفى النهر وفى فكرنا فى وقت واحد » .

فلم يرق لهن ذلك الكلام ، لأن كل واحدة منهنّ كانت تعتقد أنها وحدها المصيبة وأن رفيقاتها لفى ضلال مبين .

وما أغرب ما حدث بعد ذلك : فإن الضفادع الثلاث تسالمن بعد العداء ، وتجمعنَ فرمينَ بالضفدعة الرابعة من على القرمة إلى النهر .

الصحيفة البيضاء

قالت صحيفة ورق بيضاء كالثلج : « قد بُرئتُ نقيةً طاهرة ، وسأظل نقية إلى الأبد . وإننى لأوثر أن أحرق وأتحول إلى رماد أبيض ، من أن آذن للظلمة فتدنو منى ، وللأقذار فتلامسنى » .

فسمعت قنينة الحبر قولها وضحكت فى قلبها القاتم المظلم ، ولكنها خافت ولم تدن منها .

وسمعها الأقلام أيضاً على اختلاف ألوانها ولم يقربوها قط .

وهكذا ظلت صحيفة الورق البيضاء كالثلج — نقيةً طاهرةً — ولكن فارغة .!

العالِمُ والشاعر

قالت الحية للحسون : « ما أجمل طيرانك أيها الحسون ، ولكن حبذا لو انك تستطيع أن تنسلّ إلى ثقوب الأرض وأوكارها حيث تختلج عصارة الحياة فى هدوءٍ وسكون » .

فأجابها الحسون وقال : « إى وربى . إنكِ واسعة المعرفة بعيدتها ، بل أنتِ أحكم جميع المخلوقات . ولكن حبذا لو انكِ تطيرين » .

فقالت الحية كأنها لم تسمع شيئاً : « مسكين أنت أيها الحسون ، فإنك لا تستطيع أن تبصر أسرار العمق مثلى ، ولا تقدر أن تتخطر فى خزائن

المماللك الخفية فترى أسرارها ومحتوياتها . أما أنا فلاأبعد بك ، فقد كنتُ في الأمس متكئة في كهف من الياقوت الأحمر أشبه بقلب رمانة ناضجة ، وأضأل الأشعة تحولها إلى وردة من نور . فمن أُعطى سواى فى هذا العالم أن يرى مثل هذه الغرائب ؟ » .

فقال لها الحسون : « بالصواب قد حكمتِ أيتها الحكيمة ، فلاأحد إلّاكِ يستطيع أن يفترش ما تبلور من تذكارات العصور وآثار الدهور . ولكن واأسفاه فإنكِ لاتغردين » .

فقالت الحية : « إنى أعرف نباتاً تمتد جذوره إلى أحشاء الأرض . وكل من يأكل من تلك الجذور يضير أجمل من عشتروت وأبهى » .

فأجابها الحسون قائلاً : « لاأحد . لاأحد

إلّاكِ قد اهتدى إلى حسر القناع عن فكر الأرض السحرى . ولكن واأسفاه فإنك لا تطيرين » .

فقالت الحية : « وأعرف جدولاً أرجوانياً يجرى تحت جبل عظيم . وكل من يشرب من ذلك الجدول يصير خالداً خلود الآلهة . وليس بين الطير أو الحيوان من اهتدى إلى ذلك الجدول سواى » .

فأجاب الحسون وقال : « بلى والله ، فإن فى مناللك أن تكونى خالدةً مثل الآلهة لو شئتِ . ولكن واأسفاه ! فإنكِ لا تغردين » .

فقالت الحية : « وأعرف هيكلاً مطموراً تحت تراب الأرض لم يهتدِ إليه باحث أو منقبٌ بعد ، أزوره مرةً فى الشهر ، وهو من بناء جبابرة الأزمنة الغابرة . وقد نُقشت على جدرانه أسرار جميع

الأزمنة والأمكنة ، وكل من يقرؤها ويفهمها يوازى الآلهة فى العقل والمعرفة » .

فأجابها الحسون قائلا : « بلى ، أيتها الحكيمة العزيزة . فإنكِ لو شئتِ لا ستطعت أن تكتنفى بلين جسدك جميع معارف الأجيال . ولكنك واأسفاه لا تقدرين أن تطيرى » .

فاشمأزت الحية إذ ذاك من حديثه ، وارتدت عنه إلى وكرها وهى تبربرُ فى ذاتها قائلةً : « قبحه الله من غريد فارغ الرأس ! » .

أما الحسون فطار وهو يغنى بأعلى صوته قائلاً : « واأسفاه إنكِ لا تغردين ! واأسفاه ! واأسفاه ! يا حكيمتى فإنكِ لا تطيرين » .

الأثمان

كان رجل يحفر في حقله . وفيما هو يحفر عثر على تمثال بديع من المرمر الجميل ، فأخذه ومضى به إلى رجل كان شديد الولع بالآثار والعاديات وعرضه عليه . فاشتراه منه بأبهظ الأثمان . ومضى كل منهما في سبيله .

وبينما كان البائع راجعاً إلى بيته كان يفكر في ذاته قائلاً : « ماأكثر مافي هذا المال من القوة والحياة ! إنه بالحقيقة ليدهشني كيف أن رجلاً عاقلاً ينفق مالاًهذا مقداره لقاء صخر أصم فاقد

الحركة ، كان مدفوناً فى الأرض منذ ألف سنة ولم يحلم به أحد ؟ » .

وفى الساعة عينها كان المشترى يتأمل فى التمثال مفكراً وقائلاً فى ذاته : « بورك بما فيك من جمال ! بل بورك بما فيك من حياة ! حلمُ أية نفس علوية أنت ؟ هذه بالحقيقة نضارةٌ أعطيتها من نوم ألف سنة فى سكينة الأرض ! إنى والله لا أفهم كيف يمكن للإنسان أن يبيع مثل هذه الطرفة النادرة بمال جامد زائل ؟ » .

البحار الأخرى

قالت سمكة لأختها : « يوجد فوق بحرنا هذا بحرٌ آخر ، وفيه مخلوقات متنوعة تعيش وتسبح هنالك كما نعيش نحن ههنا ونسبح » .

فأجابتها أختها وقالت : « تلك أوهام ! تلك أوهام ! ألا تعلمين أيتها العزيزة أن كل مخلوق يترك بحرنا قيد قيراط واحد ويبقى خارجاً عنه يموت فى الحال ؟ إذن ، فما هى حجتك على وجود أحياء أخرى فى بحار أُخرى » .

التوبة

دخل رجلٌ فى ليلة ظلماء إلى حديقـة جاره فسرق أكبر بِطّيخة وصلت إليها يده ، وحملهـا وجاءَ بها إلى بيته .

وعندما كسرها وجد أُنها عجراء لم تبلغ بعد نموّها .

فتحـرك ضميره فى داخلـه إذ ذاك وأوسعه تونيباً .

فندم على أنه سرق البِطّيخة .

المحتضر والشوحة

مهلاً ولا تلجى ياأختاه ، مهلاً !

فعما قريب أترك لك هذه البقية التلفة ،

فإنها تستفرغ صبرك بطول نزعها .

إننى أضنُّ بجوعك أن يترقّب تصَرم هذه الهُنيهات : لأن هذه القيود وإن كانت من اللهاث فإن كسرها لعسير . إن رغبتى فى الموت ، وهى أبعد رغائبى ، مقيدةٌ بسلاسل رغبتى فى الحياة وهى أدنى رغائبى .

عفوكِ أيتها الرفيقة ، فإننى متماهلٌ بطىء .

هى الذكرى تمسك بروحى فتعيد إليها

تذكارات مضت : فتريها مواكب الأيام الماضية ،

ومرأى شبابٍ غابر قضيته فى حلم ،

وتشخص أمامى وجهاً يأمرُ أجفانـــى بألا تغمض ،

وتعيد إلى مسمعى صوتاً لا يزال صداه متردداً فى أذنى ،

ويداً تلامس يدى ولا أراها .

* * *

عفوكِ أيتها الرفيقة فقد طال انتظارك .

ولكن ها قد دنت الساعة وكل شىء عابرٌ زائل :

الوجه والعيون واليد والضبابُ الذى جاءَ بها ،

قد حُلّت العقدة ،

قد تقطع الحبل ،

وذلك الذى ليس بالطعام ولا بالشراب قد تنحى
وراح .

تقدمى يارفيقتى الجائعة ، تقدمى فقد أعدت
المائدة ،

والطعام حقيرٌ يسير يُقدَّم بمحبة .

هلمى واغرزى منقارك فى جنبى الأيسر ؛

وأخرجى من بين قضبان قفصه هذا الطائر
الأصغر ،

الذى لن يُرفرف جناحاه فيما بعد ،

بربك خذيه وحلقى به فى رحاب الفضاء .

هلمى ، هلمى إلىَّ ياصديقتى ،

فأنا مُضيفكِ الليلة وأنتِ ضيفى العزيز فأهلاً
ومرحباً .

وراءَ وحدتى

إن وراءِ وحدتى وحدة أبعد وأقصى ،

وما انفرادى للمعتزل فيها سوى ساحة تغصُّ بالمزدحمين ،

وما سكونى للساكنين فيها سوى جلبةٍ وضجيج .

إننى حِدثٌ مضطربٌ هائمٌ بعدُ فكيف أبلغ تلك الوحدة القاصية ؟

إن ألحان ذلك الوادى تتموج فى أذنىَّ ،

وأظلاله السوداء تحجُبُ الطريق عن عينىَّ ،

فكيف أسير إلى تلك الوحدة العلوية ؟

ـــ أن وراءَ هذه الأودية والتلال غابة حبٍّ وافتتان ،

وما سكوني لمن فيها سوى عاصفة هوجاء صماء ،

وما افتتاني لعاشقيها سوى انخداع وغرور .

إنني جِذثٌ مضطرب هائمٌ بعدُ فكيف أبلغ تلك الغابة القدسية ؟

فإن طعم الدماء لا يزال فى فمى ،

وقوس أبى ونشابه ما برحا فى يدى ،

فكيف أسير إلى تلك الوحدة العلوية ؟

ـــ إن لى وراءَ هذه الذات السجينة ذاتاً حرة طليقة ،

وما أحلامى فى عقيدتها سوى جرب فى ظلام ،

ومارغائبي تجاه رغائبها سوى قرقعة عظام .
إنني حدثٌ مهانٌ ذليل بعدُ ،
فكيف أكون ذاتي الحرّة الطليقة ؟
أجل ، كيف أكون ذاتي الحرّة الطليقة ـــ
قبل أن أثأر لنفسي فأذبح جميع ذواتي
المستعبدة ؛
أو قبل أن يصير جميع الناس أحراراً طلقاء ؟
إذْ ، كيف تطير أوارقي مترنمةً فوق الريح ـــ
قبل أن تذوي جذوري في ظلام الأرض ؟
بل ، كيف يحلق نسرُ روحي طائراً أمام وجه
الشمس ـــ
قبل أن تترك فراخي عشّها الذي بنيته لها بعرق
وجهي ؟

اليقظة الأخيرة

في غلس الليل العميق ، وقد هبَّ النسيمُ مُعطَّراً بأنفاس الفجر الأولى ، نهض السابق — وهو صدى الصوت الذى لم تسمع به أُذنٌ بعد — فترك مقصورته وصعد إلى سطح بيته . وبعد أن وقف هنالك طويلاً ينظر إلى المدينة الهاجعة فى سكينة الليل ، رفع رأسه وكأنما قد تجمعت حواليه أرواح أولئك النائمين المستيقظة ، فتح فاه وخاطبهم قائلاً :

« ياإخواتى وجيرانى ، ويا أيها الذين يمرُّون ببابى فى كل يوم . إننى أودّ أن أناجيكم فى نومكم

وفى وادى أحلامكم .. أودّ أن أمشى مطلقاً غارياً ؛ فإن ساعات يقظتكم أشد غفلة من نومكم ، وآذانكم المثقلة بالضجيج كليلة صمّاء .

« لقد أحببتكم كثيراً وفوق الكثير .

« قد أحببت الواحد منكم كما لو كان كلّكم .

« وأحببتكم جميعكم كما لو كنتم واحداً .

« ففى ربيع قلبى كنت أترنم فى جنانكم ،

« وفى صيف قلبى كنت أحرس بيادركم .

« أجل ، قد أحببتكم جميعكم ، جباركم وصعلوككم ، أبرصكم وصحيحكم ، وأحببت من يتلمس منكم سبيله فى الظلام ، كمن يرقص أيامه على الجبال والآكام .

« أحببتك أيها القوى مع أن آثار حوافرك الحديدية لاتزال ظاهرةً فى لحمى .

« وأحببتك أيها الضعيف رغم أنك جففتَ إيمانى وعطلت علىَّ صبرى .

« أحببتك أيها الغنى فى حين أن عسلك كان علقماً فى فمى ؛ وأحببتك أيها الفقير مع أنك عرفت عارى وفراغ ذات يدى .

« أحببتك أيها الشاعر المقلِّد الذى يستعير قيثارة جاره ليضرب عليها بأصابعه العمياء ، أحببتك كرماً ولطفاً ، وأحببتك أيها العالم الدائبُ عمره فى جمع الأكفان الرثة من حقل الخزاف الممقوت .

« أحببتك أيها الكاهنْ الجالس فى سكون أمسه متسائلاً عن مصير غدى ؛

وأحببتك أيها العابد الذى يتخذ له من أشباح رغائبه آلهةً يعبدها .

« أحببتكِ أيتها المرأة المتعطشة وكأسُها مملوءةٌ أبداً ، لأنني عرفت سرَّكِ ؛

وأحببتكِ أيتها المرأة الساهرة لياليها مشفقاً عليكِ .

« أحببتك أيها الثرثار قائلاً في نفسي : « إنَّ للحياة كثيراً فتقوله » ؛

وأحببتك أيها الأبكم قائلاً في سري : « حبذا لو أسمع نُطقاً يعبرِّ عما في صمته » .

« أحببتك أيها القاضي والناقد ، ولكنكما عندما رأيتماني مصلوباً قُلتما : « ما ألطف نزف دمائه من عروقه ، وما أجمل الخطوط التي ترسمها في مسيلها على جلده الناصع » .

« أجل ، أحببتكم جميعكم ، فتاكم وشيخكم ،

وأحببت قصبتكم المرتجفة كسندياناتكم الجبارة الراسخة .

« ولكن واأسفاه ! فإن قلبى الطافح بحبكم قد حوّل قلوبكم عنى ؛

لأن فى وسعكم أن ترتشفوا خمرة المحبة من القدح الصغير ، ولكنكم لاتقوون على شربها من النهر الفياض .

« إنكم تستطيعون أن تسمعوا صوت المحبة عندما تهمس مُسرةً فى آذانكم ؛

ولكنكم تصمون آذانكم عندما تصيح المحبة مهلّلة بأعلى صوتها .

« وعندما رأيتم أننى قد أحببتكم جميعكم على السواء . تهكمتم قائلين : « ماأسهل انقياد قلبه ، وماأبعد الفطنة عن مسالكه ! إن محبته هذه محبة

متسوِّل جائع ، قد تعود التقاط الفتات ولو كان جالساً إلى موائد الملوك . بل هى محبة ضعيف حقير ، لأن القوى لا يحب إلا الأقوياء » .

« وعندما رأيتم أننى أحببتكم حباً مفرطاً قلتم :

« إن محبته هذه محبة أعمى لا يميز بين جمال الواحد وبشاعة الآخر ، بل هى محبة عديم الذوق الذى يشرب الخل كأنه يشرب الخمر . بل إنما هى محبة فضولىّ مدع إذْ أىُّ غريب يستطيع أن يحبنا كأبينا وأمنا وأختنا وأخينا ؟ » .

« هذه أقوالكم وغيرها كثير . لأنكم طالما أشرتم إلىَّ بأصابعكم فى شوارع المدينة وساحاتها، وقلتم بعضكم لبعض ساخرين :

« بربكم انظروا الصغير الكبير الذى لا يعبأ بالفصول والسنين ، فهو عند الظهيرة يلاعب

أولادنا بالأكر ، وعند المساء يجالس شيوخنا مدعياً الحكمة والفهم » .

« أما أنا فكنت أقول فى قلبى : « لا بأس فى ذلك فإنى سأحبهم أكثر ، نعم أكثر فأكثر . ولكنى سوف أسدل على محبتى ستاراً من البغض ، وأستر عطفى بشديد كرهى . وسأتبرقع ببرقع من حديد ، ولا أسعى وراءهم إلا مسلحاً مدرّعاً » .

« وبعد ذلك ألقيت يداً ثقيلة على رضوضكم وجراحكم ، وكما تعصف العاصفة فى الليل رعدتُ فى آذانكم .

« ومن على السطوح قد أذعتكم للملأ فريسيين مرائين خداعين ، وفقاقيع أرض كاذبة فارغة .

« قد لعنت قاصرى النظر فيكم كما تلعن الخفافيش العمياء ؛

وشبَّهت الملتصقين بالأرض والأدنياءَ منكم بالمناجذ العادمة النفوس .

« أما الفصحاء والبلغاء بينكم فدعوتهم متشعبى الألسنة ، ودعوتُ الصامت الساكن فيكم متحجّر القلب والشفتين ، وقلت فى البسيط الساذج : « إن الأموات لا يملُّون الموت » .

« قد حكمت على الساعين وراءَ المعرفة البشرية منكم ومن أبنائكم كمجدّفين على الروح القدس ؛

وحكمت أيضاً على المأخوذين والمجذوبين بحب الأرواح وما وراء الطبيعة ، كمصطادى أشباح يرمون شباكهم فى مياه راكدة ولا يصطادون سوى أظلالهم البليدة .

« كذا شهَّرتكم بشفتى ، ولكن قلبى والدماء

تنزف منه فكان يدعوكم بأرق الأسماء وأحلاها .

« أجل ، أيها الأصحاب والجيران ، فإن المحبة قد خاطبتكم مسوقةً بسياط ذاتها ، والكبرياء قد رقصت أمامكم متعفرة بغبار خيبتها مذبوحة بآلامها ؛

وتعطشى لمحبتكم قد ثار ثائره على السطوح ؛

ولكن محبتى كانت تسألكم صفحاً وهى راكعة صامتة .

« ولكن إليكم المعجزة يا قوم !

« إن تسترى قد فتح عيونكم ، وبغضى قد أيقظ قلوبكم .

« والآن فأنتم تحبوننى !

« إنكم لا تحبون سوى السيوف التى تطعن قلوبكم ، والسهام التى تخرق صدوركم ؛

لأنكم لا تتعزون إلا بجراحكم ، ولا تسكرون إلا بخمرة دمائكم .

« وكما يتجمع الفراش حول اللهيب ساعياً وراء حتفه ، تجتمعون أنتم فى كل يوم إلى حديقتى ؛ وبوجوه مرتفعة وعيون شاخصة ، تراقبوننى وأنا أُمزق نسيج أيامكم فتتهامسون فيما بينكم قائلين :

« إنه يبصر بنور الله ويتكلم كأنبياء المتقدمين ، فيحسر القناع عن نفوسنا ويحطم أقفال قلوبنا ، وكما يعرف النسر مسالك الثعالب يعرف هو أيضاً طرقنا ومسالكنا ،

« بلى ، فإننى بالحقيقة أعرف طرقكم ، ولكن كما يعرف النسر طرق فراخه . وإننى بمسرة قلب قد كشفت لكم سرى . ولكننى لحاجةٍ بى إلى

قربكم أتظاهر بالجفاء ، وخوفاً منى على دنوّ قضاء محبتكم أقوم على حراسة سدود محبتى » .

وبعد أن فرغ السابق من كلامه غطى وجهه بيديه وبكى بكاءً مرًّا ؛ لأنه أدرك فى قلبه أن المحبة المحتقرة فى عريها لأعظم من المحبة التى تنشد الظفر في تسترها وتنكرها ؛ وخجل إذ ذاك من ذاته ،

ثم رفع رأسه بغتة وكأنَّهُ أفاق من نوم عميق . بسط ذراعيه وقال : « ها قد ولّى الليل ، ونحن أولادُ الليل يجب أن نموت عندما يأتى الفجر متوكئاً على التلال ؛ وستُبْعَثُ من رمادنا محبةٌ أقوى من محبتنا ، وستضحك فى نور الشمس وستكون خالدةً » .

« انتهى السابق »

رقم الإيداع ١٩١٢ ـــ ٨٥
الترقيم الدولى ٢ ـــ ١٤١٠ ـــ ١٠١ ـــ ٩٧٧